بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد ؛

فقد كرست هذه الدراسة لبيان معنى الأُمي، وتحقيق القول في أُمية النبـــي ﷺ ، وبيـــان دلالة الإعجاز في ذلك حينما استعملت وصفًا له، فكان عنوان الدراسة (أُمية النبـــي ﷺ بـــين المعنى اللغوي والدلالة السياقية).

وتفترض الدراسة أنَّ دلالة الألفاظ لا تنحصر في السياق المقالي / اللفظي أو المعنـــى اللغوي فحسب ، بل ينبغي الأخذ بالحسبان الدلالة السياقية أو السياق المقامي / غير اللفظـــي الذي وردت فيه تلك الألفاظ ؛ إذ إن له قيمة دلالية متفاوتة بحسب المقام أو الحال الذي تـــرد فيه ، وهذا ما دعا إلى عقد توطئة لبيان المراد من ذلك.

استهلت هذه الدراسة – بعد التوطئة – ببيان معنى الأُمي ذاكرة أقوال أهل العلـــم فـــي ذلك، ومصوبةً ما رأته صواباً منها بالاستناد إلى الأدلة. ثم عرَّجت على ذكر أقـــوالهم فـــي نسبة الأُمي ، ورجحت ما بدا لها راجحًا، ومن بعد تناولت تحقيق القول في أُمية النبي ﷺ ، مع بيان دلالة الإعجاز في ذلك، ثم ذكرت الحِكَم في اتصافه بها. وختمت الدراســـة بخاتمـــة أوجزت فيها النتائج، والله ولي التوفيق.

توطئـــة:

اللغة نظام من الرموز الصوتية ، وهي وسيلة راقية للتعبير عمّا في النفس والاتصـــال الإنساني ؛ إذ تستعمل للتعامل ونقل الفكر بين المتكلم والمتلقي. ولكي يتم ذلك لابدَّ من وجود فاعل هو اللفظ الدال ومفعول هو المدلول ، وهذان هما ركنا الدلالة. غير أن هذا التأسيس لا يعني أنَّ الدلالة منحصرة في التعبير اللفظي ؛ إذْ يمكن أن تنجم الدلالة وتتحقق من الوضـــع الصامت أو الساكن وإن لم يُخبر عنه بلفظ. قال الجاحظ: ((ومتى دلَّ الشيء على معنًى فقد أخبر عنه وإنْ كان صامتًا ، وأشار إليه وإن كان ساكنًا، وهذا القول شائع في جميع اللغـــات ومتفق عليه...))[1] .

---

[1] البيان والتبيين ، الجاحظ : ١/٨١-٨٢ .

وبناءً على هذا لا تنحصر الدلالة في القرائن المقالية / اللفظية فحسب ، بـــل إن هنـــاك قرائن مقامية أو ما يعرف في اللسانيات بسياق الموقف (The Context of Situation) * ، وهذه ذات قيمة دلالية سياقية / غير لفظية تتفاوت من مقام إلى مقام ، ومن حال إلى حال .

ولذا ينبغي عدم حصر دلالة اللفظ على المعنى اللغوي وهو السياق اللفظي ، بل يؤخـــذ بالحسبان المقام أو السياق غير اللفظي الذي ورد فيه ، بمعنى ((أنَّ كل كلماتنا تقريبًا تحتاج على الأقل إلى الإيضاح المستمد من السياق الحقيقي ، سواء كان هذا السياق لفظيًّا أم غيـــر لفظي))[1]. وهذه هي المسألة المركزية التي تدور عليها هذه الدراسة.

---

* يعزو اللسانيون المحدثون معالم نظرية السياق إلى الأنثروبولوجي مالينوفسكي ، وعنه تبنى اللساني فيرث آراءه فيما يختص بسياق الموقف الذي يتجاوز دراسة السياق اللفظي وهو المعنى المقالي إلى دراسة السياق غير اللفظي وهـــو المعنى المقامي.

ينظر: الألسنية (علم اللغة الحديث)– المبادئ والأعلام ، د. ميشال زكريا: ٢٨٢–٢٨٣، واللغة العربية معناهـــا ومبناها ، د. تمام حسان:٣٣٩.

[1] دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان: ٦١ .

معنى الأُمي :

ورد وصف الأُمية في القرآن الكريم ست مرات : مرة في وصف قوم من اليهود، ومرتين في وصف الرسول ﷺ ، وثلاث مرات في وصف العرب. وفيما يأتي جدول بالآيات الكريمة بحسب ترتيب السور في المصحف الشريف :

السورة	الآيـــــة	رقمها
البقرة	﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾	٧٨
آل عمران	﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾	٢٠
	﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾	٧٥
الأعراف	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾	١٥٧
	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾	١٥٨
الجمعة	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾	٢٠

وعند الرجوع إلى أقوال المفسرين في تفسير لفظ الأُمي في أول آية ذكر فيها وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ نجد أنهم يذكرون له معنيين:

الأول: أنّ الأُمي من لا يكتب ولا يقرأ:

قال الطبري في بيان معنى قوله : (ومنهم أُميون) في الآية السابقة : ((يعني بالأُميين: الذين لا يكتبون ولا يقرؤون ...يقال منه: رجل أُمي، أي بيّن الأُمية))[١]. وقال القرطبي: ((...(أُميون) : أي من لا يكتب ولا يقرأ، واحدهم:أُمي))[٢].

الثاني: أنّ الأُمي من لا يُقرُّ بكتاب ولا برسول:

روى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما هذا المعنى في أثناء تفسير قوله تعالى:(ومنهم أُميون)، قال: ((الأميون: قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتابًا أنزله الله فكتبوا كتابًا بأيديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهلة :"هذا من عند الله" وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أُميين لجحودهم كتاب الله ورسوله))[٣]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ((في صحة هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما بهذا الإسناد نظر ، والله أعلم)) [٤].

والراجح هو المعنى الأول لما يأتي :

١- إن الضمير في قوله تعالى : (ومنهم أُميون) يعود على اليهود . قال أبو حيان: ((إنّ سياق الكلام إنّما هو مع اليهود فالضمير لهم))[٥]. فالآية إذًا في اليهود، وهذا مروي عن أئمة التفسير[٦]. فإذا تبيّن أنّ الآية هي في اليهود، وهم ممن يقرون بالكتاب والرسول، فهل يليق بمعنى الأُمي أنه الذي لا يقر بكتاب ولا برسول ؟!

٢- إنَّ قوله تعالى: (لا يعلمون الكتاب) في الآية الكريمة قرينة لفظية تدل على أنَّ معنى الأُمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ .

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري: ١/٤٣٠ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢/٥ .

[٣] جامع البيان عن تأويل آي القرآن :١/٤٣٠ .

[٤] تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير :١/١١٧ .

[٥] البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي :١/٤٤٤ .

[٦] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١/٤٣٠ .

٣- قال تعالى: (هُوَالَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ)[١] وقال ﷺ : ((بعثت إلى أُمة أُميَّة))[٢]. وقد بين النبي ﷺ المراد بالأُمة الأُمية فقال: ((إنا أُمة أُمية لا نكتب ولا نحسب))[٣]. فهذا نصٌّ صريح من النبي ﷺ في بيان معنى الأُمية بأنها عدم الكتابة والقراءة. قال ابن الأثير: ((قيل للعرب: الأُميون؛ لأنّ الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة))[٤]. وقال أبو حيان:((الأُمي:الذي هو على صفة أُمة العرب...فأكثر العرب لا يكتب ولا يقرأ))[٥].

٤- إنَّ تفسير الأُمي في الآية بأنه الذي لا يقر بكتاب ولا برسول على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أن معنى الأُمي عندهم هو الذي لا يكتب ولا يقرأ[٦].

نسبة الأُمي :

ذكر المفسرون واللغويون- في أثناء بحثهم معنى الأُمي- نسبة الأُمي، وقد اختلفت عباراتهم في ذلك، ويمكن إيجاز هذه الآراء على النحو الآتي :

١-ذكر قسم من العلماء أن الأُمي منسوب إلى الأُم؛ لأنها أصل الشيء، ولمّا كانت الكتابة مكتسبة فقد نسب إلى ما ولدته أمه عليه، أي على ما جبلته عليه من عدم الكتابة . قال الطبري: ((وأرى أنه قيل للأُمي: أُمي نسبة له - بأنه لا يكتب- إلى أُمه؛ لأن الكتاب كان في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أُمه في جهله بالكتابة دون أبيه))[٧] .

---

[١] سورة الجمعة : ٣ .

[٢] صحيح ابن حبان، ابن حبان :١٤/٣ .

[٣] صحيح البخاري، (كتاب الصوم- باب قول النبي لا نكتب ولا نحسب):٦٧٥/٢ .

[٤] النهاية في غريب الحديث والأثر،ابن الأثير:٦٨/١.

[٥] البحر المحيط في التفسير: ١٩٤/٥.

[٦] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن :٤٣١/١ .والموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي:٤٩/٢-٥٠ .

[٧] جامع البيان عن تأويل آي القرآن :٤٣١/١ .

٢-ذهب قسم آخر من العلماء إلى أنّ الأُمي منسوب إلى أُمة العرب، لأنهم أُمــة أُمية لا يقرؤون كتابًا ولا يكتبون. قال ابن منظور : ((وقيل لسيدنا محمد رسول الله ﷺ : الأُمي؛ لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب))[١].

٣-وذكر بعضهم أنَّ الأُمي منسوب إلى (أُمّ القرى) وهي مكة المكرمة. ويعبــر المفسرون عن هذا الرأي عند ذكره بعبارة: (قيل) التي يُعبر بها عن القول الضعيف[٢].

وعندئذٍ يمكن الجمع بين القول الأول والثاني بالقول :إنَّ (الأُمي) وصــف لمــن لا يحسن الكتابة والقراءة، و(الأُمية) وصف للأُمة التي كانت الكتابة فيها عديمة أو عزيــزة، وقد نُسب كلا الوصفين إلى الأُم التي هي أصل الشيء. وفي قوله ﷺ: ((إنّا أُمة أُميــة لا نكتب ولا نحسب)) قال ابن الأثير: ((أراد أنّهم على أصل ولادة أُمهم لم يتعلموا الكتابــة والحساب فهم على جبلَّتهم الأولى))[٣].

أُمية النبي ﷺ :

قلنا إن الله تعالى وصف نبيه ﷺ بالأُمّي في القرآن الكريم مرتين[٤]، وقد بين أهل العلم بالتفسير واللغة معنى الأُمية في حقه ﷺ ، فقد نقل الرازي عن الزجاج قوله: ((معنى الأُمي: الذي هو على صفة العرب ، قال عليه الصلاة والسلام: " إنا أُمة أُمية لا نكتب ولا نحسب". فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤون، والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أُميًّا لا يكتب))[٥].

وقال تعالى في خطاب النبي ﷺ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٦] . قال الطبري في بيان هذه الآية : ((يقول تعالى ذكره: (وما كنت) يا محمــد

---

[١] لسان العرب، ابن منظور :مادة (أمم) : ٢٢/١٢ .

[٢] ينظر:البحر المحيط في التفسير:١٩٤/٥.

[٣] النهاية في غريب الحديث والأثر: ٦٨/١ .

[٤]سورة الأعراف: ١٥٧-١٥٨.

[٥] جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٠١/٩.

[٦] سورة العنكبوت: ٤٨.

(تتلو) يعني: تقرأ (من قبله) يعني: من قبل هذا الكتاب الذي أنزلته إليك (من كتاب ولا تخطه بيمينك) يقول: ولم تكتب بيمينك، ولكنك كنت أُميًّا (إذًا لارتاب المبطلون) يقول: ولو كنت من قبل أن يوحى إليك تقرأ الكتاب، أو تخطه بيمينك، إذن لارتاب: يقول: إذن لشك بسبب ذلك في أمرك، وما جئتهم به من عند ربك من هذا الكتاب الذي تتلوه عليهم، المبطلون القائلون إنَّه سجع وكهانة، وإنَّه أساطير الأولين))[١] . وقال الشوكاني أيضًا: ((أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل هذا القرآن كتابًا ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أُمي لا تقرأ ولا تكتب. ولا تخطه بيمينك أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة))[٢].

وعلل الراغب الأصفهاني سبب وصف النبي ﷺ بالأُمي بقوله: ((لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب))[٣]. وقال ابن منظور: ((وبعثه – أي النبي ﷺ – رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ))[٤] .

وبهذا يتبين أن جمهور أهل العلم –من المفسرين واللغويين– على أن النبي ﷺ كان أُميًّا ، لا يقرأ ولا يكتب.

لكن ورد في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديبية أنَّ النبي ﷺ قال لعلي: " اكتب الشرط بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله". فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ، وفي رواية: بايعناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فأمر عليّاً أن يمحوها ، فقال علي: والله لا أمحوها . فقال رسول الله ﷺ: "أرني مكانها". فأراه فمحاها ، وكتب: ابن عبد الله[٥].

وقد رواه البخاري بأظهر من هذا ، فقال : فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب. وزاد في طريق أُخرى: ولا يحسن أن يكتب[٦].

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/٨–٩.

[٢] فتح القدير، الشوكاني: ٤/٢٥٦.

[٣] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٢٣–٢٤.

[٤] لسان العرب: مادة (أمم).

[٥] صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير– باب صلح الحديبية) : ٣/١٤١٠ .

[٦] صحيح البخاري (كتاب الصلح– باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان): ٢/٩٦٠ .

وقد شذت جماعة من العلماء عن رأي الجمهور فرأت بجواز هذا الظاهر عليه ، وأنه كتب بيده ، فكان ذلك خارقًا للعادة؛ لأنه كتب من غير تعلم لكتابة ولا تعاطٍ لأسبابها ، ولا يزول عنه اسم الأُمي بذلك ، ولذلك قال الراوي –في رواية البخاري عنه– في هذه الحالة: ولا يحسن أن يكتب. فبقي عليه اسم الأُمي مع كونه قال: كتب. وجواب هذا التأويل والتوجيه أن يقال: كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أُميًّا لا يكتب؟! وبكونه ﷺ أُميًّا في أُمة أُمية قامت الحجة وأُفحم الجاحدون وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية؟ وإنما الآية والمعجزة ألاّ يكتب ، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضًا . وإنما معنى (كتب) و (أخذ القلم) أنه أمر من يكتب به من كتابه ، وكان من كتبة الوحي بين يديه ﷺ ستة وعشرون كاتبًا[1] .

دلالة الإعجاز في أُمية النبي ﷺ :

كان النبي ﷺ قرشيًّا هاشميًّا ، وشهد أهل العلم باللغة لقريش بأنهم أفصح العرب لسانًا ، وقد بعث الله سبحانه وتعالى رسوله الأكرم ﷺ في قوم عُرفوا بالبيان ، بل إنهم ليقادون من ألسنتهم ؛ لأنهم أرباب الفصاحة والبلاغة ، ولهذا كان من لوازم الرسالة أن يكون من يدعوهم إليها أفصح منهم ، فكانت فصاحته –عليه الصلاة والسلام– إلهامًا من الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [2].

يقول ابن الأثير : ((إن رسول الله ﷺ كان أفصح العرب لسانًا ، وأوضحهم بيانًا ، وأعذبهم نطقًا ، وأسدهم لفظًا ، وأبينهم لهجة ، وأقواهم حجة ، وأعرفهم بمواقع الخطاب ، وأهداهم إلى طريق الصواب تأييدًا إلهيًّا ، ولطفًا سماويًا ، وعناية ربانية ، ورعاية روحانية ، حتى لقد قال له علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه– وسمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟ فقال: "أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ورُبيت في بني سعد" . فكان ﷺ يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم ، كلاً منهم بما يفهمون ، ويحادثهم بما يعلمون ، ولهذا

---

[1] ينظر: الجامع لأحكام القرآن : ١٣/٣٥٢-٣٥٣ .

[2] سورة النجم : ٣-٤ .

قال ﷺ : "أُمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم". فكأنّ الله عز وجل قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه ، وجمع فيه من المعارف ما تفرق ولم يوجد في قاصي العرب ودانيه))[1]. ويقول ابن فارس: ((كانت ألفاظه ﷺ هي السهلة العذبة))[2] . ويقول ابن القيم: ((إن كلامه ﷺ ليأخذ بمجاميع القلوب ويسبي الأرواح...كان يتخير في خطابه ، ويختار لأُمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والفحش))[3].

وقد أحاط النبي ﷺ بعلوم الأولين والآخرين، وأُعطي من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر فضلاً من الله ونعمة ، ومع هذا جعله سبحانه وتعالى أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، فكان هذا الأمر جاريًا مجرى المعجزات ، وهو من الأمور الخارقة للعادة ؛ لأنه جمع بين حالتين متضادتين: الإحاطة بالعلوم والحقائق ، وعدم القراءة والكتابة.

يقول الرازي: ((وكونه ﷺ أُميًّا بهذا التفسير –أي لا يكتب ولا يقرأ– كان من جملة معجزاته))[4] . وقال أبو حيان: ((وكونه ﷺ أُميًّا من جملة المعجز))[5].

إن سياق الموقف المتمثل في الجمع بين الحالتين المتضادتين: الإحاطة بالعلوم والحقائق، وعدم القراءة والكتابة في مقام النبي ﷺ هو الذي دل على أن وصف الأُمية في حقه ﷺ معجزة. بيان ذلك أننا لو أخذنا معنى الأُمي اللغوي / اللفظي من دون سياقه المقامي / غير اللفظي لكان دالاً على عدم القراءة والكتابة فحسب ، أما عند استصحاب سياقه المقامي / غير اللفظي وهو مقام النبي ﷺ المتمثل في الجمع بين تلك الحالتين المتضادتين ؛ فإنه سيضفي عندئذ على لفظ الأُمي دلالة الإعجاز، وذلك من دلائل النبوّة .

وعن طريق النظر في كلام المفسرين وغيرهم يمكن أن نبين وجوه الإعجاز في ذلك على النحو الآتي :

١– بعث الله سبحانه محمدًا ﷺ رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخلّة إحدى آياته المعجزة؛ لأنه كان يقرأ عليهم كتاب الله منظومًا تارة

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/١ .

[2] الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، ابن فارس : ٣٤ .

[3] زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن قيم الجوزية: ٣٢٨–٣٢٩ .

[4] التفسير الكبير : ٣٨٠/٥ .

[5] البحر المحيط في التفسير : ١٩٤/٥ .

بعد أُخرى بالنظم الذي أُنزل عليه من غير تبديل في ألفاظه ولا تغيير في كلماته، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص قليلاً أو كثيرًا ، فحفظ الله عز وجل الكتاب على نبيه كما أنزله، فكان -عليه الصلاة والسلام -يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، مع أنه لا يكتب ولا يقرأ ، فكان ذلك من المعجزات، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴾[1]. وبهذا أبان الله تعالى محمدًا ﷺ من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية المعجزة التي باين بينه وبينهم بها[2].

٢- لو كان النبي ﷺ يحسن الخط والقراءة، لصار متهمًا في أنه ربما طالع كتب الأولين فحصَّل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى -عليه الصلاة والسلام- بالقرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة،كان ذلك من المعجزات[3].

وهذا الوجه هو المراد من قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .

قال القرطبي في بيان هذه الآية :((...(لارتاب المبطلون) أي من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلق، وقالوا:الذي نجده في كتبنا أنه أُمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدًا ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية، قال النحاس: دليلاً على نبوته، لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك))[4]. وقال الرازي : ((وقوله تعالى: ﴿إذًا لارتاب المبطلون﴾ فيه معنًى لطيف وهو أنَّ النبي إذا كان قارئًا كاتبًا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه، فإنَّ جميع كتبة الأرض وقرائها لا يقدرون عليه ، لكن على

---

[1] سورة الأعلى :٦.

[2] التفسير الكبير: ٣٨٠/٥.

[3] ينظر:التفسير الكبير: ٣٨٠/٥.

[4] الجامع لأحكام القرآن:٣٥١/١٣.

ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه، فهو أدخل في الإبطال))[1].

٣- إنَّ تعلم الخط وكتابته شيء سهل، ذلك أن أقل الناس ذكاءً وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي وجهد ، فعدم تعلم الإنسان الخط يدل على نقصان عظيم في الفهم، لكن الله سبحانه آتى النبي محمدًا ﷺ علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهمًا، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريًا مجرى الجمع بين الضدين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة، وهو جارٍ مجرى المعجزات [2].

والحكمة في هذا الإعجاز -كما يرى بعض أهل العلم- تكمن في ثلاثة أمور هي :[3]

١- إن بعث النبي ﷺ أُميًّا -لا يقرأ ولا يكتب- هو لموافقة بشارة الأنبياء التي تقدمته.

٢- إن كون النبي ﷺ في أُمة أُمية-كما تقدم في قوله: ((بُعثت إلى أُمة أُمية)) -فيه مشاكلة حاله صلى الله عليه وسلم لحال القوم الأُميين الذين بُعث فيهم، وهذا مدعاة إلى موافقتهم.

٣- وبكونه ﷺ أُميًّا انتفى عنه سوء الظن من أنه ربَّما-لو كان يقرأ ويكتب- طالع كتب الأقدمين فحصَّل هذه المعرفة والحِكَم التي تلاها من تلك المعرفة.

---

[1] التفسير الكبير: ٦٤/٢٥.

[2] ينظر: التفسير الكبير :٣٨٠/٥-٣٨١.

[3] ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٩٢/١٨.

الخاتمة :

انتهت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج يمكن إيجازها بالآتي :

١- لا تنحصر دلالة الألفاظ على المعنى اللغوي أو السياق اللفظي فحسب، بل ينبغي الأخذ بالحسبان المعنى المقامي أو السياق غير اللفظي ، الذي ترد فيه .

٢- (الأُمية) وصف تكرر ذكره في القرآن الكريم ست مرات : مرة في وصف قوم من اليهود،ومرتين في وصف الرسول ﷺ ، وثلاث مرات في وصف العرب .

٣- ذكر المفسرون واللغويون للأُمي معنيين، أحدهما : أنه من لا يكتب ولا يقرأ. والثاني: أنه من لا يُقرُّ بكتاب ولا رسول .

٤- صوبت هذه الدراسة معنى الأُمي بأنه الذي لا يكتب ولا يقرأ، وذلك بالاستناد إلى الأدلة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة واستعمال الأُمي في كلام العرب .

٥- ذكرت الدراسة أقوال أهل العلم في نسبة الأُمي وانتهت إلى أن الظاهر في هذه النسبة أن (الأُمي) وصف لمن لا يحسن الكتابة والقراءة، وأن (الأُمية) وصف للأُمة التي كانت الكتابة فيها عزيزة أو عديمة وقد نُسب كلا الوصفين إلى الأُم، لأنها أصل الشيء .

٦- ذهب جمهور أهل العلم-من المفسرين واللغويين-إلى أنَّ النبي ﷺ كان أُميًا، بمعنى أنه لا يكتب ولا يقرأ، وقد استندوا في ذلك إلى الأدلة من القرآن والسنة.

٧- شذت جماعة من العلماء فزعمت أن النبي ﷺ قد ثبت عنه أنه كتب، واستندت إلى حديث شريف ظاهره كذلك. وانتهت الدراسة إلى أن هذا الدليل متأوَّل ليس على ظاهره .

٨- إن استصحاب المعنى المقامي أو الدلالة السياقية / غير اللفظية في مقام النبي ﷺ هو الذي أضفى على لفظ الأُمية في حقه ﷺ دلالة الإعجاز.

٩- لخَّصت الدراسة وجوه الإعجاز في أمية النبي ﷺ ذاكرةً الحِكَم من ذلك.

المصادر والمراجع:

١- الألسنية (علم اللغة الحديث) –المبادئ والأعلام: د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢- البحر المحيط في التفسير: الأندلسي ، أبو حيان ت ٧٤٥هـ ، دار الفكر،بيروت،١٤١٨هـ-١٩٩٨م ، ج١، ج٥ .

٣- البيان والتبيين: الجاحظ ، عمرو بن بحر ت ٢٥٢هـ ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ط٢، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م ، ج١.

٤- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، أبو الفدا ت ٧٧٤هـ ، دار الندى، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ج١.

٥- التفسير الكبير: الرازي ، فخر الدين ت ٦٠٦هـ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط٤، ١٤٢٢هـ ،ج٥، ج٢٥.

٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن:الطبري ، محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ ، ضبط وتعليق: محمود شاكر الحرستاني، تصحيح:علي عاشور، دار إحياء التراث، ط١، ١٤٢١هـ_٢٠٠١م،ج١، ج٩.

٧- الجامع لأحكام القرآن:القرطبي، ت ٦٧١هـ ، اعتنى به : هشام البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ_١٩٩٥م، ج٢، ج١٣، ج١٨.

٨- دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ترجمه وقدم له وعلق عليه: د. كمال بشر، مكتبة الشباب، د.م ،١٩٧٥.

٩- زاد المعاد في هدي خير العباد : ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر ت ٧٥١هـ ، بيروت ، دار ابن حزم ، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٠- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها : ابن فارس ، أبو الحسين أحمد ت ٣٩٥هـ ، تحقيق د.عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١١- صحيح ابن حبان :ابن حبان ، محمد بن حبان ت٣٥٤هـ ، تحقيق:شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ج٣.

١٢- صحيح البخاري: البخاري ، محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ ، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ج٢.

١٣- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج ت ٢٦١هـ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٣.

١٤- فتح القدير: الشوكاني ، محمد بن علي ت ١٢٥٠هـ ، راجعه: هشام البخاري، وخضر عكاري، المكتبة العربية، بيروت،١٤١٦هـ-١٩٩٧م، ج٤.

١٥- لسان العرب ، ابن منظور ، محمد بن مكرم ، ت ٧١١هـ ، دار صادر – بيروت ، ط١ ، بيروت ، د . ت .

١٦- اللغة العربية معناها ومبناها: د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩م.

١٧- النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير ، مجد الدين ت ٦٠٦هـ ، تحقيق: محمود محمد الطناحي وطاهر الزاوي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، د.ت.ج١.

١٨- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد توفي نحو ٤٢٥هـ ، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة،د.ت.

١٩- الموافقات في أصول الشريعة: الشاطبي ، أبو اسحاق ت ٧٩٠هـ ، حققه وعلق عليه: خالد عبد الفتاح شبل ، بيروت، مؤسسة الرسالة،١٤٢٠هـ-١٩٩٩م،ج٢.